الباب الرابع

الأزياء فى العصرين العباسى والمملوكى على مصر

obeikandl.com

الفصل الأول
أزياء الخلفاء والسلاطين

مقدمة:

كان الخلفاء العباسيون عامة – ممن تولوا الخلافة فى مصر خلال الفترة من عام (١٢٦١ – ١٥١٧ م) – يعيشون فى ظل سلاطين المماليك – هذا فضلا عن حقيقة أن سلاطين المماليك كانوا من القوة بشكل يجعل فى مقدورهم أن ينصِّبوا أو يعَزلوا الخلفاء حسب مشيئتهم – وكثيرا ما فعلوا ذلك دون حرج، وأحيانا كان الخليفة يظهر – حسبما ذكر السيوطى – كما لو كان فقط أحد الأمراء الذين يعملون فى خدمة السلطان، ولذلك لم يسترعوا انتباه كل فنانى القرون الوسطى الشرقيين الذين صوروا مشاهد بلاط السلاطين بدقة، كما لم يسترعوا انتباه تلك الفئة من الفنانين الأوروبيين الذين أتيحت لهم فرصة عمل رسومات تخطيطية لبعض حفلات الاستقبال الرسمية.

نماذج الملابس الأصلية :

من الطبيعى أن يكون لها القدح المعلى والاعتبار الأول. ولكن لسوء الحظ لم يحتفظ خلفاء الأمراء المماليك مطلقا بالأطقم الفاخرة من ملابس أسلافهم كذكريات عائلية، ومن المدهش أن تظل قلة منها باقية إلى وقتنا الحاضر وهى عبارة عن: قميص وزوجين من السراويل وقلنسوة، وقليل من الطواقى، وهذا كل ما يمكن تحقيقه ونسبته بالتحديد إلى العصر والدولة موضوع البحث. والخلاصة أن تاريخ أزياء المماليك – هذا بخلاف الأسلحة والدروع – يمكن أن يُكتب دون أن نأخذ فى الحسبان ما كان عليه أشكال الملابس نفسها.

وبعد مرور بعض الوقت على استضافة الخليفة العباسى فى مصر بدأ الشك يتسرب إلى النفوس خوفا من محاولة الاستيلاء على السلطات الدنيوية التى يمارسها السلطان المملوكى.

فالواقع العملى أنه بقيام الخلافة فى مصر أصبح هناك حاكمان، أحدهما السلطان الذى يرأس حكومة مصر، والثانى هو الخليفة الذى كان المفروض أن يتولى السلطة الدينية فقط.

ولما كان من الصعب وضع حد فاصل – حتى هذا الوقت بين الأمور الدينية التى يختص بها الخليفة، والأمور السياسية التى تدخل فى اختصاص السلطان – فقد استأثر أغلب السلاطين بجميع الأمور، وتركوا للخليفة بعض مظاهر السيادة، والتى أهمها منح

السلطان تفويض حكم البلاد، علما بأن الخليفة نفسه كان يخضع فى تعيينه لرضاء السلطان الذى هو الحاكم الفعلى للبلاد.

ويضاف إلى هذا الحق حقوق مظهرية أخرى، منها حق ذكر اسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة فى المساجد قبل السلطان أحيانا، وحقه فى نقش أسمه على النقود على أحد وجهيها، واسم السلطان على الوجه الآخر. وكان الخلفاء يقضون أغلب أوقاتهم فى العبادة وزيارة بعض العلماء، وإلقاء الخطب فى الجُمع والأعياد.

زى الخليفة :

١ – كان الخلفاء العباسيون فى مصر يواظبون على اتباع تقاليد بغداد فى لبس السواد – ومنذ ذلك الوقت والتعبير بكلمة «سواد» يعنى زى الخلفاء العباسيين – وهو الزى الذى ظل يُميز ملابسهم ويُتَّخذ «شعارًا» لأتباعهم ومن يلوذ بهم وطبقا لمنصبهم الذى كان روحيا أكثر منه زمنيا دنيويا، وكانوا غالبا ما يرتدون زيهم الدينى المميز لهم. وكان غطاء الرأس عند الخلفاء يتكون من عمامة مدورة لطيفة لها طرف (عذبة) يتدلى خلف الظهر يطلق عليه اسم الرفرف، ويبلغ طوله قدمين (٦٠سم) وعرضه قدمًا واحدة، وهو مرسل من أعلى العمامة إلى أسفلها؛ وكانوا يرتدون ثوبا ذا أكمام ضيقة يطلق عليه اسم قباء. ويضعون فوقه «كاملية» – وهى ضيقة عند الكم مفرجة عند الذيل من الخلف، وتبدأ من الحافة السفلى وترتفع إلى أعلى.

وتوجد مواصفات عديدة لملابسهم، وعلى الأخص تلك التى كانت تُلبس أثناء حفلات تنصيبهم – أو بمناسبة احتفالات رسمية أخرى.

٢ – وهناك نوع آخر من الثياب (ارتداه محمد بن قلاوون) عبارة عن رداء أسود ويتقلد سيفا فوق كتفه محلى بالزخارف. كما يرتدى مع هذا الرداء عمامة لها «عذبة» طويلة.

٣ – وقد تلقى الخليفة ثوبا أسود «للتشريفة» أى خِلْعَة وطرحة سوداء (وهى جبَّة سوداء وطرحة سوداء).

٤ – وفى أثناء تتويج السلطان «فرج بن برقوق». تلقى الخليفة المتوكل ثوبا أسود للتشريفة (خِلْعَة سوداء) وعمامة سوداء مطرزة وارتدى فوق رأسه طرحة سوداء مطرزة.

٥ – وفى أثناء موكب عام، ركب فيه الخليفة محمد المتوكِّل على بن يعقوب فى أول شهر رمضان من عام ٩١٤ هـ ليقدم تهانيه للسلطان قانصوة الغورى بمناسبة حلول الشهر المبارك – ارتدى الخليفة زيًّا يتكون من ثوب أسود وعمامة صغيرة لها طرف أو طرفان مسترسلان.

٦ – كما يمكن أن تكون ملابس الخليفة ليست كلها سوداء دائما، كما كان فى حفل تتويج الملك المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاوون (فى ٢ محرم سنة ٧٤٢ هـ)، كان الخليفة يرتدى ثوبا أخضر (خِلْعَة) ويضع فوق عمامته (لم يذكر لونها) طرحة سوداء بها زركشة بيضاء. (والتطريز كان من الذهب – وهذا يرتديه الخلفاء العباسيون فى مناسبات خاصة للغاية.

٧ – كذلك ارتدى الخليفة «قباء» من الصوف الأبيض بقلابة من الصوف الأخضر، وعمامة بغدادية – وذلك فى عام ٩٢٠ هـ. حيث ركب الخليفة عن يمين السلطان عند دخوله القاهرة عقب عودته من الإسكندرية.

٨ – ظهر الخليفة المستعين بالله عندما بويع (بالسلطنة) فى دمشق وكان مرتديا ثوبه الخاص بالتشريف، وهو عبارة عن ثوب «فوفانى» أسود لا غير، أخذ من خزانة ملابس خطيب الجمعة بمسجد قريب.

٩ – خلال حكم السلاطين الجراكسة، حُرِّم على الخليفة ارتداء ثوب الخلافة – فكان يرتدى أحيانا ملابس الطبقة العسكرية الأرستقراطية السائدة فى عصره.

١٠ – فى حفل تتويج عثمان بن جمقق عام ٨٥٧ هـ – خلع على الخليفة رداء من الحرير الأطلس المبرقش بزخارف من الخطوط المتموجة يُطلق عليه اسم أطلس مُتَمَر "Mutammar" – وهذا القماش هو حرير إسكندرانى منسوج بخيوط الذهب.

١١ – خلع فى الوقت نفسه على الأتابك (رداء «فوفانى») بزخارف مطرزة بطرز «زركش».

١٢ – وقد خلع على الخليفة فى حفل بعد ذلك ثوبا للتشريف مماثلا، وكذلك حدث نفس الشىء فى مناسبات مختلفة لبعض الشخصيات الرسمية الأخرى من الطبقة العسكرية الرفيعة.

١٣ – ارتدى الخليفة يعقوب المستمسك بالله فى شهر شعبان عام ٩١٤ هـ، قميصا من الصوف الأبيض «سلارى Sallari» مبطنا بالفراء «السمور»، اختير هذا الزى من بين ملابس السلطان نفسه – وكان ذلك ساعة تنحيه (لولده) عن الخلافة.

السـلطان

تقديم:

كان السلطان المملوكى هو الرئيس الأعلى للدولة، فهو الذى يتولى تعيين كبار موظفى الدولة، مثل نائب السلطان، وكاتب السر والمحتسب ونظار الدواوين، كما كان له الحق فى عزلهم وتأديبهم، وكان من اختصاصه أيضا تولى النظر فى المظالم، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود، وتعيين كبار العاملين.

وكان يُعقد مجلس السلطنة إذا أراد البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية. وكان فى مصر فى عصر الدولة المملوكية عدة **دواوين حكومية**، يُشرف كل منها على ناحية معينة من نواحى الإدارة العامة. ويدل ذلك على مبلغ ما وصله النظام الإدارى فى الدولة المملوكية من الدقة والإتقان. وكان أهم دواوين الحكومة التى تمارس من خلالها أعمالها هو ديوان الإنشاء، وديوان الأحباس، وديوان النظر، والديوان الخاص. (والدواوين جمع ديوان ومعناها بالفارسية سجل أو دفتر وأطلق مجازا على المكان الذى يُحفظ فيه الدفتر أو السجل).

الوظائف الهامة :

نائب السلطان – هو أكبر معاونى السلطان ويباشر أعمال السلطنة، منها الاشتراك مع السلطان فى منح لقب الإمارة، وتوزيع الإقطاعات، وتوزيع الموظفين.

وكان نائب السلطان يطلق عليه أحيانا «ملك الأمراء» كما كان يُلقب أحيانا «بكامل المملكة الشريفة الإسلامية» لأنه كان يتكفل بتصريف أمور الدولة سواء أكان السلطان فى القاهرة أم كان متغيبا عنها.

وكانت وظيفة نائب السلطان تَضْعُف حينا وتُلغى حينا آخر، وقد زالت نهائيا فى حكم السلطان برقوق فى دولة المماليك البرجية.

الأتابك – وهو القائد العام لجيش الدولة، وكان يسمى أتابك العسكر أى قائد الجند ويُستعمل هذا اللفظ أحيانا للدلالة على الوصى على الأمراء الذى يتعهد بتربيتهم فى حداثة السن. (ولفظ أتابك من أصل تركى ومعناه الأمير الأب أى أبو الأمراء).

الوزير – وهو يلى نائب السلطنة فى المرتبة، والوزير فى العهد المملوكى لم يتمتع بالنفوذ المطلق للوزير كما فى الدولة العباسية أو الدولة الفاطمية أو الدولة الأيوبية. وفى بعض

الأوقات نجد وزيرين أحدهما من أرباب السيوف أى من المقاتلين، والثانى من أرباب الأقلام أى من الكتّاب.

والى القاهرة – وهو من أهم الموظفين الإداريين، فهو الذى يُنفذ الأحكام ويُقيم الحدود أى العقوبات، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر.

ولاة الأقاليم – كانت الإدارة المحلية فى الأقاليم الأخرى ممثلة فى والى كل إقليم، وكانت مهمته مثل والى القاهرة، العمل على استتبات الأمن والنظام وبث الطمأنينة فى النفوس، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم.

وظائف البلاط السلطانى :

وضع المماليك للبلاط السلطانى نظاما دقيقا، ورتبوا الوظائف فيه بما يكفل سير الأعمال داخل القصر بكفاءة تامة. وكانت أهم الوظائف هى :

«**حاجب الحجاب**»، وكانت مهمته الأساسية ترتيب مواعيد مقابلات السلطان ودخول الناس إليه، وكان الحاجب يقف أحيانا أمام السلطان فى المواكب ليبلغه رغبات الرعية.

وكانت وظيفة «**الاستادار**» – من أكبر وظائف البلاط السلطانى أيضا، وكان يُشرف على إدارة البيوت السلطانية ومدها بالحوائج والشراب والفرش – وكان له الحق فى تأديب الخدم.

أما وظيفة «**الخازندار**» – فكان صاحبها يتولى الإشراف على ما يأمر به «الاستادار» بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى، فكان بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية.

وكانت وظيفة «**الجاشنكير**» من الوظائف الهامة فى العصر، لأنها تتعلق بسلامة السلطان ذاته، فكانت مسئولية من يتولى هذه الوظيفة هى تذوق الطعام والشراب الذى يُعد للسلطان قبل تقديمه إليه خشية دس السم له.

أما وظيفة «**المهمندار**» فكان صاحبها مكلفا باستقبال السفراء الذين يفدون على السلطان، والسهر على راحتهم والتأكد من تلبية طلباتهم، وتحديد موعد مقابلة السلطان لهم.

أما الحرس السلطانى – فكان يتولاه المماليك الخاصة بالسلطان وهم المماليك السلطانية – وكانوا أعظم الملوك شأنا، وأرفعهم قدرا، وأقربهم من السلطان، وكانوا يتناوبون اليوم كله نهارا وليلاً فى خدمة القصر السلطانى، ويرأس كل نوبة أمير كبير يطلق عليه اسم «رأس نوبة».

وجميع هذه الوظائف أكسبت السلاطين رونقا وبهاء وعظمة، كما أن كثرة عدد الوظائف كان لها أثر كبير فى تخفيف حدة الأحقاد التى كانت فى نفوس المماليك من أجل السلطة والنفوذ.

زى السلطان :

ارتدى السلطان الأزياء الآتية فى المناسبات المختلفة :

١ – **شعار السلطنة** – وهو عبارة عن عمامة سوداء مدورة. لها طرف طويل (عذبة) يتدلى مسترسلا على كتفيه. وأفضل برهان على أن العمامة المدورة، كانت إحدى الشعائر السلطانية هو أن هذه العمامة كانت تُشكل فى الحقيقة جزءا هاما من ثوب «التشريف الملكى» أى «خِلَعة الملك» التى أنعم بها السلطان محمد بن قلاوون عام ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) على حاكم السودان مع جبة سوداء وسيف مذهب.

٢ – **جبة سوداء** – يرتديها السلطان مع حزام من شريط مذهب معلق به سيف بدوى. أما اللون الأسود فهو شارة الولاء للخلافة العباسية، التى اتخذت هذا اللون شعارا لها منذ بدء نشأتها – وظل الخلفاء العباسيون يحتفظون به، مع استثناءات قليلة جدا – فقد بقى تقليدا متبعا حتى النهاية. كما كانت الجبة حريرية سوداء ذات أكمام ضيقة.

٣ – **ملابس تتويج السلطان** بيبرس الأول التى أرسلها إليه الخليفة العباسى، شرحها المقريزى بالتفصيل وتتكون من :

الخِلْعة – وتتكون من عمامة سوداء منسوجة بخيوط الذهب أى من النسيج المذهب المزركش.

دراعة – أو فرجية بنفسجية اللون وياقة مذهبة، وسلسلة ذهبية فى قدميه وسيوف عديدة، **يُقلد** أحدها (تُقلد تدل هذه الكلمة على معنى واحد فقط بأن السيف كان يُعلق على الكتف بواسطة الحميلة) – وسيوف أخرى حملت خلفه وبيرقان يُظلان رأسه، وكان يُشكل جزءا من المجموعة قوسان طويلان وترس، وكان جواده أبيض (أشهب) بوشاح أسود «مِشَدَّة» وكنبوش أسود.

٤ – **وفى حفل تنصيب السلطان** – كان ملابس رجل دين أصيل – أى ليس لها طابع عسكرى – فكانت العمامة من طراز لم يسبق للأمير ارتداؤه قط، إذ كانت الجبَّة أو الدُّراعة أو الفرجية لا تُرى إلا على المشايخ وحدهم ولم يكن تقلده للسيف على هذا النحو ما يُشير إلى عدم التجانس مع سائر ملبسه، إذ كان يحمله معلقا بواسطة النجاد، كما كان يُحمل فى بلاد العرب القديمة، وهى طريقة كانت متبعة قبل الإسلام تتناسب وحسن المظهر العام.

٥ – **وكان السلطان أثناء المواكب السلطانية يرتدى زى أمير عظيم** – وهو رداء مؤلف من «كاملية» من المخمل الأحمر يحيطها فراء السمور، مع قلنسوة كلفتاة، أو فى بعض

الحالات، كان يرتدى عمامة صغيرة يطلق عليها اسم «التخفيفة». وكان من المألوف أن يركب السلطان قايتباى أثناء المواكب السلطانية وعليه ملابس صوفية.

٦ – ارتدى السلطان فى مناسبات خاصة، عمامة تسمى «التخفيفة الكبيرة»، أطلق عليها الشعب اسم «**الناعورة**» (الناعورة هو اسم للساقية السورية، وتعرف به كثيرا فى منطقة حماة) وهذه الكلمة ترمز إلى كبر حجمها ولكونها مسننة كترس الآلة، وهو أكثر الأسماء مطابقة للتخفيفة الكبيرة من الناحية التهكمية، ويُستعمل اللفظ أحيانا كتعبير يكفى للدلالة عليها، وتصحبه أحيانا كلمة «تخفيفة» ابن إياس)، من أنها تستخدم «فى مقام التاج» عند سلاطين المماليك. وكانت التيجان كما يقول ابن إياس – يلبسها ملوك فارس، ولذا أصبحت «التخفيفة الكبيرة» ذات القرون الطويلة هى التاج الخاص بالسلاطين المصريين كالتاج الذى اختص به الفرس. وكانت التخفيفة الكبيرة بقرونها الطويلة نوعا من أغطية الرأس الثقيلة. وقد اعتاد السلطان الغورى على الأقل لبس «تخفيفة صغيرة» كلما وجد عذرا يبيح له ذلك.

٧ – ويتضح من ذلك أنه كان يوجد بالضرورة نوعان من العمائم من نوع «التخفيفة» الصغيرة، حيث إنه اصطلح أحيانا على اتخاذ نوع مستدير منها يطلق عليه اسم «تخفيفة صغيرة مدورة» فمثلا عند وصول السلطان الغورى من مدينة الإسكندرية فى الخامس عشر من شهر ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ (٣١ يناير من عام ١٥١٥م) كان السلطان يلبسها بدلا من القلنسوة – الكلفتاه مع كاميلية من المخمل الأحمر، مبطن بصمور يرتديها فوق ثيابه.

٨ – كان يرتدى رداء عبارة عن سلارى بنفسجى اللون مصنوع من قماش خشن من الصوف من نوع الجوخ ومبطن بفراء «الوَشَق» ووضع فوق رأسه تخفيفة صغيرة مدورة بدون قرون – وذلك عند مغادرته للقاهرة فى شهر ذى العقدة عام ٩٢٠ هـ (١٥١٥ م).

٩ – **والناعورة** لها عدة صور ومن أفضلها فى صورة «حفل استقبال سفير من البندقية» وهى من مقتنيات متحف اللوفر.

١٠ – **الكلفتاة** – ارتداها سلاطين المماليك فى مناسبة الاحتفالات الرسمية – كغطاء للرأس. وقد تخلى عنها السلاطين فى باكورة القرن التاسع الهجرى حينما ركب الملك الناصر فرج ونزل من القلعة وعبر القاهرة وهو لا يرتدى الكلفتاة أو القماش وسمح لأمرائه أن يحذوا حذوه.

١١ – وفى بداية فصول السنة تتميز بتغيير الزى رسميا من جانب السلطان، فعند امتداد فصل الصيف بين الحادى عشر والسادس والعشرين من شهر مايو، كان من المألوف أن يرتدى

السلطان ملابسه البيضاء ويفتتح موسم لعبة البولو (الكرة والصولجان) Polo Season، وهو يلبس البياض (فى عيد الفطر، خلع السلطان الظاهر قانصوه ملابسه الصوفية، وذهب إلى الصلاة وهو يرتدى عباءة من الحرير الأبيض، وحذاء أبيض برقبة «خف» وكانت نعاله مصنوعة من الجلد البلغارى الأبيض، ومعدة بمهاميز، مكفتة بالفضة، وكانت طاقية الكلفتاة مصنوعة من الصوف الأبيض، حتى جواده وسرجه الفضى كان لونهما أبيض).

١٢ - وعند بداية فصل الشتاء، بين السادس والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر، جرت العادة أن يخلع السلطان ملابسه الصيفية ويرتدى الصوفية.

وقد كان سلاطين المماليك يمنحون مواطنيهم وأتباعهم طابعهم الشخصى ويحيطونهم بضروب الرعاية، وكذلك كانوا ينتحون هذا المنحى مع شىء من المبالغة إزاء ضيوفهم الأجانب وتعتبر مظهرًا من مظاهر الأبهة والفخامة.

١٣ - انكبوا على أنواع الترف، وقد اشار ابن إياس على إفراط «خشقدم» بالإفراط فى البذخ والتنعّم - إذ كان يستخدم السمور الأسود كفراء للبسه (ولم يكن هذا النوع معروفا منذ أمد طويل قبل أيام هذا المؤرخ)، وكان عنده قباء من الصوف، مبطن بمخمل أحمر، وكان عند ركوبه يستعمل «مهاميز»، و «ركاب» من ذهب خالص.

١٤ - كذلك كان حب قانصوة الغورى الشخصى لحياة البذخ أمرا له شهرة واسعة، فقد نبذ الحزام «الشد» المتخذ من القطن البعلبكى واستبدل به حزاما «حياصة» من الذهب الخالص، وكان يزين أصابعه بخواتم مرصّعة بالأحجار الكريمة، مما دعا المؤرخ ابن إياس إلى الحكم عليه بأنه خليع ومخنّث.

١٥ - وجرت العادة بأن يرتدى السلطان أثناء الحملات العسكرية نفس الزى المخصص للميدان والذى يرتديه أمراؤه.

١٦ - وقد حدث أن ركب بيبرس، أثناء عرض عسكرى، وهو يرتدى «قباء أبيض لا غير» وكان ذلك فى يوم حار من أيام الصيف، وكان قميصه الذى يرتديه من الزرد، وقد أشير إليه بإشادة مقتضبة على أنه طويل أى «زردية مسبلة».

١٧ - ارتدى بيبرس خوذة مذهبة، وكذلك فعل أمراؤه فى هذه المناسبة، ووصفت دروع السلاطين الجراكسة التى كانوا يتقلدونها أثناء المواكب الملكية على أنها **زردية داودية** وهى عبارة عن قميص من الزرد له شهرة صناعية، كان يضعه السلطان تحت ملابسه لتوفير أسباب السلامة والطمأنينة.

يشمل زى الأمير المملوكى ما يأتى :

١ – **القباء «الجمع أقبية»** – وهى تصنع من الصوف والأطلس والحرير أو القطن البعلبكى، وبمرور الزمن كانت التفاصيل تتغير تغييرًا عظيما داخل هذا الإطار. إذ كانت المؤثرات الأجنبية الدخيلة تُعبّر عن نفسها تلقائيا، وكلما حدث تغيير فى مقومات المجتمع المملوكى، بالانغماس فى الترف ازداد شيوع استعمال المواد النادرة والكماليات النفيسة إلى أن تبدأ مرحلة انهيار اقتصادى، فتحدث تغييرات أخرى، يترتب عليها حينئذ حتمية استعمال مواد أكثر رخصا.

ويرتدى أمراء المماليك **القميص «واللباس»**.

٢ – **الأقبية التترية** – يرتدى الأمير فوق القميص الأقبية التترية، ثم فوقها الأقبية الإسلامية، ثم يشد عليها السيف من الجانب الأيسر – أما الصولق والكزلك، فيشدان إلى الجانب الأيمن. وكان القباء إما من اللون الأبيض أو مزينا بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق ويُطلق عليه اسم المشهّر – وله أكمام ضيقة، وهذا يماثل ما تحدث عنه المقريزى من الملابس الفرنجية التى كانت موجودة فى عصره أو فى عصر قلاوون. كما كان لديه الأكمام الفوقانية المتسعة التى إذا انبسطت، تمتد إلى ما بعد أطراف الأصابع بمسافة بوصات كثيرة، وتظهر كأنها تنتهى عند الرسغ نتيجة ثنيها بثنيات عديدة. وبعد فترة شرع الأمراء وأيضا أعيان الجند فى ارتداء أقبية قصيرة الأكمام فوق القباء ولكن أكمامها أكثر اتساعا من أكمام القباء التحتانى الضيقة مطابقة للـ «سلار» الذى أدخله نائب السلطان فى عصر محمد بن قلاوون، وبيبرس – وقد ورد وصفه كأحد الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة، ومن المألوف عمل «السلار» من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة، مثل القطن البعلبكى، ومن فراء السنجاب الرمادى، ومن الأطلس ذى الخيوط المعدنية، وكان يُحلى أحيانا بزخارف غنية فخمة، وأحيانا أخرى تنثر عليه اللآلئ والأحجار الكريمة، وكانت التخفيفة "Takhfifa" (غطاء رأس) مع السلارى "Salari" يُعتبران كزى تركى صميم، أى مملوكى – فكان الملوك يرتدى زى الأتراك فى عهد المماليك الشراكسة.

٣ – **الطراز «Tiraz»** – كان يُعتبر امتيازا منذ عصر ما قبل الإسلام. وفى خلال عصر الأيوبيين والمماليك قام الطراز بدور أكثر تواضعا عما كان عليه فى عصر أسلافهم – وبما أن المنسوجات لم تكن تُصنع فى قصور وقلاع هؤلاء الأمراء، لذا لم يخصوا بها ضُبّاتهم وحاشيتهم، ومهما كانت طلباتهم من هذا النوع فإن النساجين الذين يُمارسون هذه

الصناعة كانوا يزودونهم بما يحتاجونه مستخدمين «الحرير والذهب الخالص»، ويُطلقون على هذا النسيج اسم «زركش»، وكان اسم السلطان أو الأمير يسجّل على هذا النسيج ويُسمون ذلك «رقما»، ويقوم العمال بصناعة تلك الأشياء مثل باقى المقتنيات الأخرى النفيسة المخصصة لاستخدامها فى البلاط، وكان يُشار إلى الطراز غالبا، ويوصف أحيانا باعتباره «كلفة» خاصة وفاخرة، وكان من المألوف أن يُصنع الطراز من «الديباج» ذى الخيوط الذهبية أو من الحرير الأسود المطرز، ويوجد الطراز على كم القباء الفوقانى للسلطان أو الأمير، حروف كوفية تبدو كأنها لا تمثل أية كتابة على الإطلاق، بل مجرد وحدة زخرفية، ولا يمكن أن تحتوى على أكثر من صيغة دعائية دينية، حيث ميّز بين الشريط المطرّز الذى يُطلق عليه «طراز زركش» وهو الذى يوضع على الثوب «الفوقانى»، والطرز المذهبة التى توضع على «الثوب» التحتانى، وقد كان الثوب «الفوقانى» يُصنع من الحرير الأطلس الأحمر، ويُبطن بفراء السمور الرمادى، ويُزين «دائرة» بفراء القندس، وكان فخما للغاية، ويدلنا على درجة الرخاء التى كانت فى عهد قلاوون. بينما كان الثوب التحتانى أسفل الثوب الأول يتساوى غالبا معه فى الطول، أى مع القباء الفاخر، لذا كان من الصعب رؤيته وتمييز الفرق بين نوعى الطرازين بوضوح. ويوجد فرق بين «طراز» وبين «طراز مذهب»، وطبقا لتعريفه يجب أن يُصنع الطراز فى مناسج القصر ويُستدل على أنه شريط طراز أصيل وهو من الكتابة المنسوجة أو المطرزة على حافة قطعة القماش لتعطى بيانات عن تصنيعها، وهى بوضعها هذا تطابق الأهداف العملية الخاصة بخاتم المصنع أو مثل ما هو معروف فى التجارة فى وقتنا الحالى «بالبرسل edging»، أى علامة «التجارة Mark» التى تنسج على طرف قطعة القماش ويُعتبر «الطراز الأصل»، والطراز الحقيقى كان يختص به فقط من يمتلكون أرضا مُنِحت لهم ويطلق عليها اسم «إقطاع»، ولم يكن موظفًا من طبقة صغيرة، وليس له الحق فى ارتداء شرائط الطراز.

٤ – **المعطف** – كان من المألوف ارتداء معطف أو ثلاثة فوق القباء.

٥ – **العباءة** – كانت العباءة العادية الخاصة بأمير عظيم فى العصر المملوكى الشركس المتأخر، هى «**الملوطة Malûta**» – وهى عبارة عن رداء «فوقانى» له ياقة – وفى عام ٩٠٠ هـ كان يرتديها أزبك، وهى غير مدورة ومعها تخفيفة صغيرة – كما كان يرتديها قانصوة الغورى حينما نودى به سلطانا، وكذلك ارتداها الأمير «أزدمر الدويدار» حينما ركب إلى القلعة. وهذه «الملوطة» يخصصها ابن إياس كزى للشعب.

أما المماليك العاديون فكانوا يرتدون الكوافى «القندس والملاليط» أثناء الاحتفالات ويرتدى المماليك فى الأيام المطرة عباءات مصنوعة من خامة خشنة لها وبر يُطلق عليها اسم «جوخة Jukha». وفى الأزمنة الأخرى يرتديها عامة الناس.

وفى الصيف كانت جميع الملابس «الفوقانية – الملوطة» بيضاء وتصنع من أقمشة أخرى، وفى الشتاء كانت تصنع الملابس ملونة ومن الصوف أو الحرير غالى الثمن مبطنة بالفراء – والأمراء العظام يستعملون فراء «السمور Sable» و «الوشق Iynx» و «الفاقم Hermin»، والسنجاب الرمادى.

٦ – **الأحزمة** – كان الحزام فى عهد الأمراء المماليك يسمى «حياصة Hiyâsa» جمعها «حوايص Hawâis»، وكان يُصنع من معدن ثمين أفخمها ما كان يُصنع من الفضة المطلية بالذهب. استعمله العسكريون، ويُعتبر محمد بن قلاوون أول من أدخل الأحزمة الذهبية من أجل الأمراء وجماعة الخاصية – وفى عهد خلفائه حتى عصر الملك الناصر فرج – كان يرتديه الأمراء والخاصية. وكان بعضها يُرصع بالأحجار الكريمة – وكان السلطان يوزع عددا ضخما من الأحزمة الفضية والذهبية «حوايص» على مماليكه كل عام. وكانت تقتنى أكثر من أى قطعة أخرى. والحياصة المعروفة لم تكن مملوكية، بل كانت أيوبية.

٧ – «**الباند Band**» – عبارة عن شريط عريض من القطن المصبوغ الملون يرتديه عادة الخاصية من المماليك، وطبقة الضباط الصغار. وكان يُصنع من الحرير الأصفر، ويُستخدم فى المناسبات الرسمية، ويرتديه أيضا رجال التشريفات فى الديوان ورؤساء الفرق ومفتشو الجيش (نقيب الجيش) وما يماثلهم فى المرتبة من الأمراء.

غطاء الرأس :

١ – **الشربوش Sharbûsh** – وهو لباس للرأس له المكانة الأولى – إذ يُعتبر بصفة خاصة الطابع المميز لطبقة الأمراء – وقد وصف «المقريزى» الشربوش بأنه مثل «شىء يشبه التاج» ويبدو كما لو كان مثلث الشكل، ويوضع على الرأس بغير عمامة، أى لا يلف حوله منديل. وعندما يمنح أى مملوك رتبة «فارس» كان من المألوف أن يمنحه السلطان خلعة تتناسب ومرتبة الفروسية، ثم يضع على رأسه شربوشا. وعلاوة على ذلك، كان لبس «الشربوش» والقباء طابعا مميزا للغاية لأمير مسلم، وبينما تشير النصوص إلى أن لبس الشربوش قد وُجد فقط فى عصر الأيوبيين أو المماليك البحرية. فإن «المقريزى» يؤكد أن لبس «الشربوش» قد أبطل فى عصر المماليك الشراكسة.

٢ – ويبدو أن المقصود بهذا هو تبرير تمييزه عن القبعة الصلبة المزينة بالفراء ذات المقدمة المرتفعة المثلثة الشكل قليلا. وتتميز بحلية معدنية فوق الجبهة، وقد ظهرت صورتها كثيرا جدا فى مخطوطات العصر المملوكى. كما وُجد نوع آخر من «الشربوش» أسطوانى الشكل عظيم الطول.

٣ – «الكلوتة Kalauta» أو (القلنسوة) – أخف من الشربوش العادى، ولكنها لا تقل عنه مكانه من الناحية الرسمية – وكان السلطان يرتدى كلوتة صفراء، وهى خاصة بالأمراء وباقى العسكريين، يحيط بحافتها شريط «باند» أطلق عليه اسم «تضريب Tadrib» وتلبس دون عمامة.

وأصدر بعد ذلك خليل بن قلاوون قرارا بتغيير لباس الرأس البسيط هذا والذى كان يُصنع من خامة صوفية خشنة، بالظهور بالكلونة المطرزة – أو بكلوتة حمراء والعمائم من فوقها.

وفى عصر برقوق جعل حجم الكلوتة يزداد كبرا على الدوام، وكان المنديل يُلف ليكون شكل انتفاخات أطلق عليها اسم «عَوَج Awaj» وهذا هو النوع الذى انتشر أيام المقريزى وسُمى بالكلوتات الجركسية.

وقرب نهاية حكم الجراكسة كان شكل الكلوتة قد تغير مرة أخرى – وذكر عنها كما لو كان لها «طرفان».

وحيث إن جميع هذه التغيرات قد حدثت على الكلوتة، وظهر فيها موضات جديدة تباعا فلابد من أنها كانت شائعة وشعبية تماما، واستمرت مستعملة حتى نهاية الدولة المملوكية – وكانت فى جميع الأوقات لباسا مهما للرأس للأمراء وللسلطان معا.

٤ – **العمامة** – كانت العمامة وحدها هى رمز «أرباب القلم» أى أرباب العمائم، وأصبحت الكلوتة رمزا للاستقراطية العسكرية – والأمير كان يملك «التخفيفة الصغيرة، و«التخفيفة الكبيرة» أيضا، ووجدت العمائم الصغيرة الحجم ثم أصبحت كبيرة، وكان شكلها أكثر رشاقة، واستمر كبر حجمها فترة من الزمن.

٥ – ووجد نوع آخر من لباس الرأس كان خاصا بالعسكريين يطلق عليه اسم «سراقوج Sarâquj» وهو عبارة عن طاقية. أو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطى طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى – وقد اختفى السراقوج من عالم الموضة فى خلال عصر «المماليك البحرية»، ثم عاد بعد قرن من الزمان فى عصر المماليك الشراكسة «كلباس رأس للسيدات».

٦ – **الطاقية "Taqiya"** – وصيغة الجمع «طواق»، وكانت تشبه الكوفية التى كان يلبسها الصبيان والبنات، وكانت من ألوان مختلفة، وكان ارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريبا. وقمتها مدورة ومسطحة. وفى عصر فرج تغيرت الموضة وعرفت «الطاقية» باسم «الجركسية» وأصبحت عظيمة الارتفاع، ويبلغ طولها ثلثى ذراع. حدث حينئذ تغيير بسيط فى الجزء الأعلى منها فصنع غالبا على هيئة قبّة صغيرة، كثر فيها الحشو بمادة

الورق، زين بفراء القندس بعرض يبلغ ثمن ذراع تقريبا. وبين سنتى ١٤٨١ - ١٥٠١ ميلادية ضاقت الطاقية عند القاعدة أكثر من القمة وصنعت من لونين، فأحيانا يكون الجزء الأسفل منها أخضر اللون والأعلى أسود. وهى مصورة فى صورة استقبال السفير البندقى - المحفوظة فى متحف اللوفر.

٧ - **الزمط** - وجد منذ بداية القرن التاسع الهجرى - وأشير على أنه غطاء رأس للطبقات الدنيا- وهو عبارة عن منديل يُلف حول طاقية حمراء، ويوجد بين مجموعات المتحف القبطى فى القاهرة زمطٌ فى حالة جيدة تماما.

الشعر عند الرجال - كان محمد بن قلاوون قد حلق شعر رأسه عند تأديته فريضة الحج بمكة قرب نهاية حياته - وكذلك فعل أمراؤه أسوة به - فأبطلت موضة الشعر الطويل ولُبسَت العمائم كقاعِدة متبعة.

٨ - **الأحذية** - كان الحذاء للطبقة العسكرية يشتمل غالبا على حذاء برقبة طويلة يطلق عليه اسم «خف Khuff» - وكان من المألوف صنع خف الشتاء من جلد أصفر اللون يطلق عليه اسم «أديم» مستورد من الطائف، أو من جلد أسود مستورد من بلغاريا، وكان موضع تقدير عظيم فى كل البلاد الشرقية خلال القرون الوسطى. وقد كانت الأخفاف ذات الرقاب، من المألوف ارتداؤها فى فصل الصيف كما هى العادة. ولمعرفة خصائص هذا الخف، فهو من الجلد، وأحيانا كانت له أربطة متككة، ويُربط بالخف مهاميز مكفتة بالفضة أو الذهب.

وكان من المعتاد ارتداء حذاء فوق الخف يُطلق عليه اسم «سقمان Saqmân» ويوجد نوع آخر من الأحذية أكثر ثقلا من الخف، ويطلق عليه اسم «ترجيل Tarjîl» أو «مركوب»، يصنع من جلد مراكشى أحمر اللون، له مقدم رفيع يلتوى إلى أعلى.

الفصل الثانى

خِلَع التشريف

ثوب التشريف الذى يُطلق عليه اسم «خِلعة».

وقد أُعترض على هذه التسمية لأنها تحتوى على جملة أشياء، فتشتمل على ثياب، وأسلحة جواد وعدته.. الخ. ولكن المنحة التى كانت مكونة من عدة أشياء هذه لا يلبسها الرجل إلا للتشريف، يطلق عليها اسم «تقدمة»، ومن جهة أخرى، فإن أقنعة الرأس فى أحيان كثيرة وكذلك الأحزمة مع استبعاد الأسلحة، التى كانت تمثل دائما جزءا مهما وأساسيا من مظهر الأمير – لم تكن تُحتسب كجزء من الثياب الممنوحة التى يُطلق عليها اسم «خلعة».

وقد كانت فى العصور السابقة للعصر المملوكى عبارة عن ثوب يلبسه الحاكم نفسه ويُعطيه كهدية بعد أن يخلعه من فوق جسده – وكان هذا التصرف يُعتبر أصلا بمثابة وَعد شخصى بالأمان أكثر منه رمزًا للتكريم – ثم أصبحت خِلعُة التشريف فى القرن الرابع عشر بمثابة هدية شائعة، إلى حد أنه أمكن لموظفى الدولة اعتبارها حقا مكتسبا كمرتباتهم سواء بسواء. وقد حدثت تغييرات فى خصائص ثوب التشريف. وبناء عليه، أصبح من النادر فى حكم المماليك أن ثياب التشريف كانت من الملابس التى يرتديها السلطان نفسه. ومع ذلك فقد اعتاد برقوق أن يرتدى ملابسه مرة واحدة فقط، ثم يخلعها على أمرائه، وكان ينبغى أن يتقبلوها.

وكثيرا ما كانت «ثياب التشريف» التى صُنعت خصيصا من أجل السلطان، لم يكن يلبسها السلطان.

ولقد كان من الصعب، بل ومن المتعذر تماما، تحديد الأجزاء التى تتكون منها الخِلْعة فهناك مثلا الخلعة «الكاملة» دون تحديد نوعية القطع التى كانت تتألف منها. وأحيانا كان ثوب التشريف يقتصر على «قباء» أو «عباءة»، كما كان يشتمل غالبا على متنوعات من ملابس الأمراء كالأحزمة (حوائص) أو القلانس (شربوش) التى كان يشار إليها على التخصيص بوصفها أشياء مضافة إلى الخِلْعة. وأحيانا أخرى كانت الخِلْعة تشتمل على أجزاء من الثياب.

والواقع أن ذلك التنوع المذهل فى ثياب التشريف خلال العصر المملوكى، قد صُنِّف بدقة حسب طبقات المماليك.

وكانت لأهل الدولة فى الخِلَع عادات، وهم على ثلاثة أنواع: أرباب السيوف والأقلام والعلماء. فأما أرباب السيوف فكانت خِلَع أكابر أمراء المئين - الأطلس الأحمر الرومى، وتحته الأطلس الأصفر الرومى، وعلى الفوقانى طرز مزركش بذهب وتحته سنجاب، وكلوتة مزركشه بالذهب موصول به فى طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان، مع نقوش باهرة من الحرير الملون.

أما **الوزراء والكتّاب** فأجمل ما كانت جِلَعهم «الكمخا» الأبيض المطرز برقم حرير وسنجاب مقندس وتحته «كمخة» خضراء، «وبقيار Baqyar» (شال العمائم) كان من عمل دمياط مرقوم، وطرحة.

أما **القضاة والعلماء** : فإن خِلَعهم كانت من الصوف بغير طراز ولهم طرحة، وأجملهم أن يكون أبيض وتحته أخضر.

وكانت العادة أن هبة الخطباء - وهى السواد - تحمل للجوامع من الخزانة وهى «دلق» مدور (من الواضح أن مؤرخى العصر المملوكى يُعْنَون «بالدلق» المدور أو المربع - خلعة بفتحة للرقبة مدورة أو مربعة)، وشاش أسود وطرحة سوداء وعَلَمان أسودان مكتوبان بالأبيض أو بالذهب.

والشىء المهم هو ذلك الطابع الرسمى للخِلعة، فإن أية ترقية إلى منصب أعلى كان معناه ضمنا، منح خِلعة. وبالمثل أصبح التعبير عن قرار الترقية مختصرا فى كلمات مثل «فلان من الناس عين وزيرا» (دون الإشارة إلى منحه تشريفة). وهناك أمر مهم آخر وهو تعيين موظف ليشغل وظيفتين فى وقت واحد، فعندئذ كان يتلقى ثوبين للتشريف. وهكذا كان أحد رجال الدين قد عُيّن فى وظيفتى قاض وخطيب، فمنحه السلطان «لاجين» ثوبين للتشريف. والغالب أن تسمى هذه الثياب بأسماء تطابق المناسبة التى مُنحت من أجلها، فمثلا حين يُرقى أمير إلى منصب نائب كان ثوب التشريف الذى يخلع عليه يجب أن يُطلق عليه اسم «خلعة النيابة»، والوزير الذى يُرقى حديثا يجب أن يتلقى «خلعة الوزارة»، وبالنسبة لمن يُعين حديثا فى منصب من المناصب، كان يحصل أحيانا على خلعة تسمى «خلعة الاستقرار»، وإذا امتدت خدمة أحد الموظفين الرسميين أو ثبّت فى وظيفة، أطلق اسم «خلعة الاستمرار» على ثوب التشريف الذى يخلع عليه. وهكذا مثل «خلعة القدوم» عند قدوم موظف من أحد الأقاليم، و«خلعة السفر» عند استقبال السلطان أميرا، و «خلعة العافية» للدلالة على شفاء أمير، و« خلعة الرضا» فى حالة الصفح عن أمير.

وكان رفض ثوب التشريف يُعتبر إساءة خطيرة، إذ كان ذلك يعنى إعلان العصيان أو على الأقل المجاهرة بالعداء، وعلى العكس كان قبول خلعة التشريف علامة للتعبير عن الخضوع والولاء للسلطان.

وقد حدث قرب نهاية عصر المماليك أن انحط قدر «ثوب التشريف» فِعْلاً كأى شىء آخر فكان يُصنع من أقمشة أقل جودة وأكثر رخصا. وحدث أيضا أن أرسلت السلطانة ثوبا (ليس بخلعة) إلى أطباء السلطان، وقد عُرفت ملكات أخريات قمن بتوزيع ثياب للتشريف.

وكانت ثياب التشريف تُصنع أصلا فى المصانع السلطانية، ولكن فى العصر الجركسى كانت تصنع خاصة وتباع فى سوق الشرابشيين فى القاهرة، وبمضى بعض الوقت حُرِّم بيعها فى السوق الحرة، ووضعت تحت رقابة «ناظر خاص» وأصبح لا يمكن لأى شخص ابتياعها عدا السلطان نفسه، الذى كان يمكنه شراء تلك الثياب من السوق رأسا.

obeikandl.com